غريغوريوس يوسف

البطريرك الانطاكي والاسكندري والاورشليمي
على طائفة الروم الكاثوليك

في الثالث عشر من الشهر العابر رُزئت طائفة الروم الكاثوليك بفقد حبر احبارها ومشيّد صروح مجدها وفخارها السيّد الجهبذ الفاضل والعالم العلّامة

الكامل غريغوريوس يوسف البطريرك الانطاكي والاسكندري والاورشليمي توفاهُ الله في مدينة دمشق عن اربع وسبعين سنة قضاها متزودًا من خير الاعمال ما تزلّف بهِ من مقام ربهِ حتى فاز بالسعادة في جوارهِ وقربهِ فعظم المصاب فيهِ على أُمةٍ كساها حلل الفخر والمجد واظلم بأُفولهِ الشرق الذي كان كوكبهُ ومن عجبٍ ان يأفل الكوكب في اللحد

فلئن بكتهُ أسًى يحقّ لها او لا ففي سعةٍ من العذرِ
فلمثلهِ جرت العيون دمًا ولمثلهِ جمدت فلا تجري

وكان مولدهُ رحمهُ الله في مدينة رشيد من اعمال مصر في اواخر شهر اكتوبر سنة ١٨٢٣ ونشأ في مدينة الاسكندرية الى ان بلغ السابعة عشرة من عمرهِ فدخل في رهبانية دير المخلص بجبل لبنان عاكفًا على طلب العلم مثابرًا على القنوت والنسك حتى صار القدوة المثلى في الاجتهاد والفضيلة. وفي سنة ١٨٤٧ رحل الى مدينة رومة فتخرج في مدارسها ونبغ في علم اللاهوت والفلسفة واحكم من اللغات اليونانية واللاتينية والطليانية وآب سنة ١٨٥٢ الى الاسكندرية فلم يكد يُلقي بها عصاهُ حتى انتُخب مطرانًا على عكاء فلبث فيها الى سنة ١٨٦٤. وكان سالفهُ البطريرك اكليمنضوس بحوث شيخًا صالحًا يؤثر العزلة والنسك وقد ثقل عليهِ تدبير شؤون الطائفة على اثر ما نشأ فيها من الشقاق لدن العدول عن الحساب الشرقي الى الحساب الغربي فاستقال من منصب البطريركية وانتُخب صاحب الترجمة خلفًا لهُ وذلك في ٢٩ ستمبر من تلك السنة فكان اول مساعيهِ استئصال شأفة الشقاق وجمع الكلمة واصلاح ذات البين

وفي السنة التالية انشأ في بيروت المدرسة المنسوبة اليهِ وهي المدرسة التي نبغ فيها من الطلبة جمٌّ غفير وكان لكثيرٍ منهم اليد الطولى في النهضة العلمية

في القطرين السوري والمصري. واول من درّس فيها العلوم العربية الطيب الذكر العلّامة اللغوي النحوي الشاعر الشيخ ناصيف اليازجي الشهير فاشتهرت بشهرتهِ واغترف من بحرهِ الذين تخرجوا عليهِ ودرسوا مصنفاتهِ التي لم يُنسج على منوالها في سهولة مأخذها وحسن ترتيبها وخلوها من الحشو والتعقيد ولقد احسن في تاريخ انشآئها حيث قال

أنشا غريغوريوس للعلم مدرسةً بالبطركية ندعوها على النسبِ
تمولت ارقام عامٍ ارخوهُ بها من كوكب الشرق لاحت زهرة الادبِ

سنة ١٨٦٥

على انهُ لم يذهل بتدبير شؤون الدراسة عن القيام باعبآء الرئاسة ولم يشتغل بارتقآء ذروة المنابر عن ابتنآء ذروة المفاخر فبينما هو يهتم بتعميم العلم ونشرهِ ويصدع بوعظهِ وزجرهِ اذا بهِ يسعى في عاصمة المملكة العثمانية لدى ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان بما يعود بالنفع على ابنآء ملتهِ ويثبت لديهِ صدق تابيتهِ فنال من لدنهُ الوسام المجيدي الاول والبرآءة السلطانية وكثيرًا من المنح التي صلحت بها احوال الرعية

وبعد ان استقرّ في الاستانة اربعة اشهر عاد الى سوريا فافتتح المدرسة الاكليريكية في عين تراز وهي التي اشتهرت بمن نبغ فيها من الكهنة الافاضل. وفي سنة ١٨٦٧ ارتحل الى رومة لحضور احتفالٍ ديني دعاهُ اليهِ البابا بيوس التاسع ثم انتقل الى فرنسا فجال في بعض مدنها حتى اتى باريز فشهد معرضها العام وقابل الامبراطور نابليون الثالث ثم سار الى بلجكا وقابل ملكها ثم قابل الامبراطور فرنسيس يوسف في فينا وكان حيثما حلّ عزيز الجانب محفوفًا بالتجلة والاكرام وبعد ذلك قفل راجعًا الى مصر فسوريا

وفي سنة ١٨٦٨ ذهب مع ثمانية من اساقفتهِ الى رومة بدعوة من البابا بيوس التاسع لحضور المجمع الواتيكاني فالقى فيهِ خطبتين بليغتين باللغة اللاتينية دافع بهما عن حقوق الكنيسة الشرقية دفاعاً دوى صداهُ في اقطار العالم. ثم عاد الى سوريا وعكف على رفع شأن الطائفة ببناء المدارس والكنائس وكان في جملة ما انشأهُ مدرسة القديسة حنة بالقدس الشريف واربع مدارس بدمشق ومدرستان بالقاهرة ومدرسة بالاسكندرية وحذاء كل كنيسة في المدن والقرى مدرسة لتعليم الاحداث. وقد انشأ ابرشيتين جديدتين وبنى نحو عشرين كنيسة اعظمها كنيسة القديسة ويرونكا بالقدس وهي التي وُهبت لهُ ارضها باصر شاهاني

وفي سنة ١٨٨٨ زار الاستانة ونزل ضيفاً على نفقة الحضرة الشاهانية التي خصصت لهُ قصرًا فسيحًا لضيافتهِ وانالتهُ شرف المقابلة السنية عدة مرات

وفي سنة ١٨٩٤ ذهب الى رومة فقابلهُ البابا لاون الثالث عشر مقابلة احتفالية واكرم مثواهُ الى ما لا غاية فوقهُ وفي اثناء رجوعهِ مرّ في باريز وقابل رئيس الجمهورية ووزراء الدولة الفرنسوية ثم زار الاستانة مرة اخرى فنال من لدن الذات الشاهانية ما لا مزيد عليهِ من التعطفات السنية وقفل بعد ذلك عائدًا الى سوريا

وكان رحمهُ الله حسن الهيئة معتدل المزاج قويَّ البنية ربعة القوام اسمر اللون بارز الجبهة اشهل العينين ينظر بهما عن ذكاء وثقوب رأي بديه الجواب حسن المحاضرة فصيح الخطاب ثبت الجنان حازمًا متداماً شديد الشكيمة لا يقف موقف القنوع على انهُ كان بعيدًا عن العجرفة والخيلاء سهل الاخلاق رحب الصدر طليق الوجه يقظ الفؤاد . وكان آخر مآثرهِ أن اوصى بجانب كبير من

ماله لاقامة بناء جديد لمدرستهِ البطريركية في بيروت رحمهُ الله عداد حسناتهِ وأفرغ عليهِ شآبيب عفوهِ ومرضاتهِ

غرائب المعمودية

اطلعنا في احدى المجلات الفرنسوية على مقالة لبعضهم بهذا العنوان فلخصنا منها ما يأتي تفكهةً للقرّاء قال

قد الف الناس في جميع انحاء العالم ابداء امارات الفرح والسرور عند ما يطلقون على الطفل اسماً يتعرف بهِ . ولكل امةٍ طريقة خصوصية تجري بحسبها في الاحتفال حينئذٍ وفاقاً لحكم العادة والدين فالبروتستنت في انكلترا يحتفلون الآن بالمعمودية احتفالاً شائقاً وذلك بان يأتي الابوان بولدهما الى الهيكل مع كفيليهِ (العرّاب والعرّابة) وجمهور الاصدقاء المدعوين لحضور هذا الاحتفال وكلهم متزيون باحفر الثياب والحلي اما الطفل فيُلبس ثوباً ابيض مطرزاً رمزاً الى طهارتهِ ثم يبدأ القسيس او الاسقف الاحتفال بالصلاة على ما درجوا عليهِ . على ان بعض فرق البروتستنت لا ترى المعمودية امراً جوهرياً في الدين فلا يعبأون بها كثيراً

ويحتفل الكاثوليك بالمعمودية احتفالاً دينياً فيبدأ الكاهن بالتعزيم عليهِ ليخرج منهُ الروح الشرير . وفي اثناء الاحتفال يكون الطفل محمولاً على ذراعي كفيلهِ فيجاوب الكاهن متعهداً بالنيابة عنهُ انهُ يكره الشيطان وجندهُ . ثم يرسم الكاهن علامة الصليب بين منكبي الطفل ويتم الصلاة ويضع ايضاً شيئاً من الملح في فمهِ فيصرخ لذلك . وعلى هذه الطريقة تجري معمودية الكاثوليك في المانيا وايطاليا واسبانيا وفرنسا وانكلترا الاّ في بعض امور عرضية . وقد جرى الغربيون في المعمودية على رش الطفل بالماء اما الروم وسائر الطوائف النصرانية